خطاب الجنس
مقارباتٌ في الأدب العربيّ القديم
هيثم سرحان
(المركز الثقافي العربي)

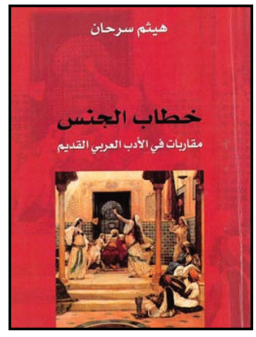

كتاب هيثم سرحان خطاب الجنس: مقارباتٌ في الأدب العربيّ القديم كتابٌ يستكملُ معرفتَنا في الثقافة العربية التي تبقى ناقصةً دون تسليطِ الضوء على تلك المئات من القصص والنوادر والحكايات والطرائف والوقائع والأيام وتحليلِها للوقوع على كنوزها المختفية والمخفيّة. وهذا الحقل بالطبع لا يوفّيه محراثٌ واحد، وسيظلّ غيرَ مطروق طرقاً جيداً إذا ما قورن بالحقول الأخرى المقتولةِ بحثاً. كتاب هيثم سرحان يدشّنُ خوضاً جديداً في هذا الميدان الصعب، ويقدّم ثمراتٍ ستكون بالتأكيد فاتحة لمشروع طويل للعمل على هذه الموضوعة، ولبحثِ مفاصلَ أخرى منها.

قبل هذا الكتاب الذي بين يديك أيها القارئ، تمرّن هيثم سرحان أكاديمياً في حقلَيْن: حقل التأويل الدلالي وحقل السيمياء. أفضى به التمرّن الأول إلى بحث أنظمة التأويل لدى المعتزلة متناولاً نظريةَ المعرفة التي يقوم عليها التأويل الاعتزالي، فاكتسب خبرة مَنْ يخوض في بحر واسع من النصوص القديمة ترافقها مُلازَمةٌ لنصوص حديثة توخّى منها العون المنهجيّ فخرج لنا بكتابه الأول في العام ٢٠٠٣ تحت عنوان استراتيجية التأويل الدلالي عند المعتزلة، وكان أطروحته لنيل درجة الماجستير. في التمرّن الثاني، خاض غمار البحث في السرد العربي القديم ناشداً الكشف عن أنظمتها السيميائية، وهذا البحث ليس ببعيد عن الأول، فعُدّته هي هي، تمسّكٌ بنصوص التراث وتطلّب للعون المنهجي الحديث، وحتى أكون أكثر دقّة، فإن هيثم سرحان في غوصه في السرود العربية القديمة إنما كان يبحث عن منظومة المعارف العربية من خلال سرودهم. فالسرد كما تبنّاه تبدّى مفهوماً يشير إلى نظام المعرفة الذي يشكّله المجتمع، وهنا يكمن عمق معالجته التي أفضت إلى ظهور كتابه الثاني في العام ٢٠٠٨ تحت عنوان الأنظمة السيميائية: دراسة في السرد العربي القديم، وكان أطروحته لنيل درجة الدكتوراه.

في كتابه الجديد هذا، كتابه الثالث،، خطاب الجنس: مقاربات في الأدب العربي القديم، يبحث هيثم سرحان في خطاب محرّم لم يُلتفَت إليه إلاّ لماماً، وفي ظنّي أنه سيظلّ مجالاً غير مطروق بكفاية لسنين قادمة. والمؤلف على وعي بهذه الحقيقة التي يردُّها إلى غياب الأدوات النقدية الملائمة لمعالجة هذا النمط من النصوص، وكذلك غياب الوعي بأهمية هذه النصوص وأهمية دراستها، وما غياب هذا الوعي الأساسي إلاّ بالمنزلة التي يحتلها الجنس وخطابه في ثقافتنا واجتماعنا الحديثيْن بوصفهما ميدانين يشتبك فيهما المحرّم والإثم وذَهاب الحياء. يتتبّع المؤلف السرود العربية القديمة المبثوثة في أمهات التراث السردي العربي

الضخم ليأتيَ بحكاياتٍ وقصصٍ ونوادرَ ووقائعَ وأيام وطرائفَ قاسمُها المشترك موضوعة الجنس، غير أنهً لا يتوخّى من تلك السرود البالغة الوفرة إطلاعنا على مادتها البحتة وإمتاعنا بفحواها، بل بمطاويها ومخفياتها، بالأعماق التي تتمرأى مخادعة في مظاهر سردية تبدو اعتيادية ومألوفة، لكن تحليلات هيثم سرحان تكشف عن البنية العميقة لها حين يقشّر النصّ السردي ليقع على لبّه المنشود والمبتغى.

ولكن كيف يحقّق المؤلف هذا العملَ الصعبَ الذي يتطلّب معرفة خاصة ومهارة في استعمال هذ المعرفة الخاصة؟ وهل حقق الهدف في محاولاته إماطة اللثام عن لبّ النصوص الجنسية التي عالجها في كتابه؟ أودّ أن أذهب مباشرة إلى القول إن تحليلات الكتاب للسرود المنتقاة بدت لي لامعة في مجملها، فزيادة على نزعة التشويق الموجودة أصلاً في الخطابات والنوادر نفسها، يضفي هيثم سرحان على تحليلاته طابعاً تشويقياً مضاعفاً وذلك من خلال أمرين باعتقادي: الأول هو طبيعة انتقاء النصوص المُخضَعة للتحليل، والثاني اللغة التحليلية التي تكتسب نصاعة خاصة. لكنني أيضاً أودّ أن أشير إلى أن بعض التحليلات تمتاز بالحماسة المفرطة، وقد أسمّيها «اندفاعات عاشق تَلْصفُ عيناه حبّاً»، اندفاعات تودّ بلوغ فكرة مسبقة في رأس الباحث، وللقارئ أن يتدبّر معالجة المؤلف لقصة سَبْي ابن هُبيرة الغسّاني زوجة الحارث بن عمر في هذا الكتاب. مع ذلك، تبدو هذه الاندفاعات التحليلية أنها تتبنى فكرة إيجابية يسعى المؤلف من خلالها إلى الهجوم غير المباشر على شريك جنسيّ أساسيّ (الزوج) يمارس دوراً عنيفاً ضدّ المرأة بإلحاقها به وجعلها تابعاً، وموضوعاً، وآلة جنسية، ومخزناً مادياً لتأمين كنز معنويّ؛ حيث يودَع فيه الشرف. كلّ هذه التصورات عن المرأة تجعل المؤلف ينعى على الحكايات إضمارَها هذا الحيف، فيطلق أحياناً للغته العنان دون حيطة أو حذر كأن يرى أن المرأة العربية كانت تفضّل أنْ تكون سبيّة على أنْ تكون زوجة، وأن لذّتَها مرهونة في الخضوع للسيطرة الجنسية، وأن متعتها مرهونة في الوقوع في دائرة السَّبْي.

ثمة تنبيه أساسيّ يقدّمه كتاب هيثم سرحان للقارئ العربي؛ وهو أن خطاب الجنس المتمخّض عن النصوص السردية الجنسية، الخطاب بما هو ممارسات ثقافية وبنى كلية لهذه الممارسات، والنصوص بما هي حامل لهذه البنى الثاوية فيها، أقول إن خطاب الجنس مكوّن حضاري لا يصحّ أن يشتبك مع خطاب القيم الثاوي في النصوص الدينية وقوانين الشريعة والتقاليد والعادات. ومن هنا ينبّهنا الكتاب على فصل هذا المكوّن الحضاري وفحصه لا لشيء غير زيادة المعرفة بثقافتنا، في الحقيقة، لا لشيء سوى لاستكمال معرفتنا بثقافتنا. وبالسلب، يوحي لنا المؤلف أن معرفتنا بثقافتنا ناقصة بالضرورة من دون معرفة خطاب الجنس. وهذه مهمة قام بها المؤلف ليس على مستوى التنبيه فحسب، بل على مستوى الشروع باستكمال هذه المعرفة الناقصة؛ وتلك وحدها مأثرة لهذا البحث.

من هذه الزاوية يكون الكتاب كتاب كشف واستكشاف؛ كشف لمكامن في ثقافتنا القديمة، التي

مـا زالت في جوانب عديـدة منها هي ثقافتنـا الحديثة ما دامـت تثقلنا بالوصايـا والإكراهات، ومستكشـف لبحر مـن النصوص التي اتُّخذتْ أعشاشـاً نشـأت فيها ونمت تصوراتنا المتوارثة. خطاب الجنس: مقارباتٌ في الأدب العربيّ القديم اسـتجلاء لصورة فـي ثقافتنا العربية، وهو في الوقت عينه اسـتجلاء لصورتنا نحـن في تلك الثقافة نفسـها. فـأن تجلوَ ماضيَك هو أن تجلوَ نفسَـك، وتمثيل هـذا الماضي هو بمعنى مـا تمثيل لأنفسـنا أيضاً. وحين نُبْنـا عن ماضينا لنقول عنه أشـياء معينة باعتبارها أشـياءَه الحقيقية، فإننا في الوقت نفسـه، وبالأصالة عن أنفسـنا، قلنا أشـياء عن أنفسـنا باعتبارها أشـياءَنا الحقيقية أيضاً، وإن اختلفت مظاهر الأشـياء وتنوعت ألوانُه. فنحن وهو نشـترك فاعليةً ومفعولية. وخطاب الجنس العربي الذي مثّل أسـلافنا كان ينطوي بمستوىً ما على ما ننطوي عليه الآن من نظام للمعرفة ما زال يمارس فعلَه فينا.

وفـي الوقـت عينـه، إن تنـاول المؤلـف موضوعـة الجنس وصلتها بتراثنا العربي تكشف عن وعي القدامى المتقـدم في تكييـف أفكارهم لحاضرهم. فقـد كان ثمة خطّـان متوازيـان يعملان معـاً، ولا يكاد يتقـدم أحدهما حتى يلحق به الآخر، ولا يكاد يتأسس شيء جديد عملاً حتى يتأسـس شـيء جديد نظراً. كلّ ذلـك فرضه العصر الجديـد الذي وجـد العربُ فيهم أنفسَـهم، بل بالأحرى صنعـه العرب أيـام كانـوا يَصْنَعـون ولا يُصْنَعون، حيث تتداخل ثقافتهم بثقافات أخرى، وتتداخل ألوانهم بألوان أخـرى، وتتداخـل لغتهم بلغات أخـرى، ويتداخل حتى دينُهـم بأديان أخـرى، أعراق وديانـات ومذاهب ولغات ولهجـات عالجوهـا فأنتجوا لنـا ما أنتجوا، ومـن بين ما أنتجوا شـيء كامن في تلك النصـوص التي يعالجها هذا الكتاب، يسـتنطقها ويحاورها ليعثر على محددات تلك المرحلـة فيمـا يتعلق بالثقافة الجنسـية، والأهم من ذلك التصور الذي تحمله النصوص للجنس وطبيعته.

إن هذا الكتاب مسـاهمة في طريق فكّ الاشـتباك بين قداسـة الماضـي ونصوصـه السـردية الجنسـية من جهة وحُرمـة البحث التفصيلـي والتحليلي فيهـا، أو العزوف عنها في الوقت الحاضر. وهذه واحدة من النتائج المهمّة والمباشـرة لهـذا الكتـاب. وليـس خفيّـاً هـذا الارتبـاط الحميم بين القداسـة واللاجنس، لأن الجنس في سـياق القداسـة دنـس، فـلا تقديس مـع التدنيس. وهنـا تتجلى الفكـرة المهمـة فـي تبيين هـذا الارتبـاط الإيهامـي. إن فكّ هذا الارتباط، وهو شـيء موجـود في تضاعيف هذا الكتاب، مساهمة في توسيع الفهم وتصحيحه عن ظواهر إنسانية طبيعية، وهي محاولة نحو فهم أفضل أيضاً لذلك الحشـد الهائل من النصوص السـردية العربيـة القديمة، وهـي محاولـة لتوفيـر متعة أكبـر كذلك عبر اسـتكناه ما تخفـي تلـك القصـص الجنسـية، والنـوادر والطرائـف والحكايـات التي احتوت على خطابات جنسـية أو حتى كرّسـت هذه الخطابات عن سابق تصميم. وما من مهمة أمتـع للبحـث من إيجاد سـبل اكتشـاف هـذه الخطابات وتقديمهـا، الأمـر الذي فعلـه المؤلف هيثم سـرحان في هـذا الكتاب على نحو مميّز، فقـدّم لنا هذا الكتاب الذي يوفّر المتعةَ والمعرفة في آن. **قراءة حسن ناظم**